

المحاضرة الرابعة

5 نظرية المحاكاة: أفلاطون، أرسطو.

قبل الخوض في نظرية المحاكاة يجب أن أتوقّف قليلاً لأستجلي المفهوم الأولي لهذا المصطلح من حيث اللغة والاصطلاح، ففي اللغة: الحكاية: كقولك حكيتُ فلانا وحاكيتُهُ فعلت مثل فعله أو قلت مثل قوله سواء لم أجازه... وفي الحديث: ما سرّني أنّي حكيتُ إنساناً وأنّ لي كذا وكذا أي فعلت مثل فعله... والمحاكاة المشابهة، تقول فلان يحكي الشمس حسناً ويحاكيها بمعنى¹.

أمّا في الاصطلاح: المحاكاة mimesis مصطلح استعمله أفلاطون قبل أرسطو والمصطلح في دلالاته القديمة معنى العرض أو إعادة العرض، أو الخلق من جديد. وعلى هذا يمكن ترجمته بالمحاكاة².

• نظرية المحاكاة عند أفلاطون:

ظهرت نظرية المحاكاة مع أفلاطون خلال القرن الرابع قبل الميلاد، وهي نظرية تستمد كما أسلفنا أصولها من الفلسفة المثالية، ولفهم هذه النظرية في بعدها الأدبي لا بد من الرجوع إلى نبعها الفلسفي. فأفلاطون فيلسوف قبل أن يكون ناقد أدبٍ أو ناقد فن.

إنّ مصطلح المحاكاة ارتبط بفلسفة أفلاطون المثالية، التي ترى أنّ العالم المدرك المرئي ما هو إلاّ صورة أو ظل لعالم الحقيقة المثل، وهذا المثل في تصور أفلاطون كامل متكامل خلقه الله، وأنّ العمل الأدبي ما هو إلاّ صورة لعالم الأشياء الذي هو خال من المثل الأعلى، وبهذا التصور تصبح الحقيقة الغائبة صورة مشوّهة بدر

تين؛ لأنّ العالم المنقول في العمل الأدبي ناقص أصلاً، وهذا العمل الأدبي ما هو إلاّ محاكاة لعمل منقول عن محاكاة ناقصة.

- لسان العرب، ابن منظور، مج14، ص:191.¹
- فن الشعر، أرسطو، ص:61.²

وإذا أردنا أن نفهم نظرية المحاكاة عند أفلاطون لا بد من الرجوع إلى الحوار الذي دار بينه وبين تلميذه سقراط وجلوكون، ومؤدى هذا الحوار أنّ الفكرة في عالم المثل، وتجسيدها من الإنسان الصانع، ومحاكاتها من الرسام. ويضرب لنا مثالا على ذلك:

السريّر أو الكرسي في عالم العقل عبارة عن فكرة مجردة وهي من الله. والنجار أنزلها من عالم المثل في شكل مادة مرئية محسوسة مدركة، ثم يأتي الرسام ليحاكي ما هو موجود. فالرسام في هذه الحالة بعيد عن الحقيقة مرتين ومن ثم فهو يعرف ظواهر الأشياء دون أن يفهم طبيعتها، يتصل بظواهر الأشياء الخادعة للحواس، لا الجوهر.³

وعليه فهناك فكرة الكرسي ثم الكرسي الواقعي ثم الكرسي في الفنّ في الصورة.

عالم المثل ← الفكرة المجردة غير المرئية ← من الله

عالم الأشياء ← الحقيقة المرئية المدركة ← من النجار

عالم الفنّ ← الحقيقة الشكلية البعيدة عن الجوهر ← من الرسام

وهكذا سعى أفلاطون بكل براعة وجدل منطقي إلى إقصاء الشاعر وطرده من جمهوريته لأنه رأى فيه أنه ينتقص من هذه المثالية، ويسعى إلى هدم مشروع بناء مجتمع مثالي نموذجي كامل. مع عدم نفي بأنّ لدى الشعراء قدرا من الحكمة والفتنة.⁴

الأسس الفكرية والفلسفية:5

__ اعتماد الفلسفة المثالية الموضوعية.

__ الوعي أسبق في الوجود من المادة.

__ التماس الحقيقة ليس عند الأدباء بل الفلاسفة، لأنّ الأدباء يخاطبون العاطفة أكثر مما يخاطبون العقل.

- ينظر، فن الشعر، أرسطو، ص:61.³

- ينظر، في نظرية الأدب، ص:26.⁴

- ينظر، المصدر نفسه، ص:23-25.⁵

_ اعتبار الأدباء ملهمون من عند ربة الشعر.

_ إدانة الأدباء باسم الأخلاق معتبرا الأدباء غير مرشدين للسلوك الصادق الأخلاقي.

_ رفض فكرة الفن للفن، والإيمان بفكرة الفن للأخلاق.

مهمة الأدب ووظيفته:⁶

وظيفة الأدب في فلسفة المحاكاة الأفلاطونية كانت منصبه على بيان أثر الأدب في السلوك الإنساني، من خلال تأجيج عواطف الناس وإلهابها بدل تجفيف العواطف وإخمادها، وعليه راح أفلاطون يحصر وظيفة الأدب في المنفعة دون اقترانها بالمتعة.

• نظرية المحاكاة عند أرسطو:

وجد أرسطو في أفكار أستاذه أفلاطون مادة لصياغة نظرية جديدة للمحاكاة إلا أنه أفرغها من محتواها النهائي وأثرها بأرائه الثاقبة وملاحظاته الدقيقة، فهو يرى أن المحاكاة ليست لعالم المثل الذي لا وجود له، وإنما للطبيعة مباشرة، وعليه فالمحاكاة هي أن يحاكي الشاعر أوجه الحياة في عالميتها الشاملة من حيث الشكل والجوهر، ومن ثم فالمحاكاة ليست نسخا مباشرا للحياة، وغنما تمثل لها.⁷

يرى أرسطو أن الشعر نوع من المحاكاة لكن لا باعتباره نقلا حرفيا وتقليدا أو تشويها كما يرى أفلاطون، بل إبداعا وابتكارا، فالأديب حينما يحاكي لا يكتفي بنقل ما هو موجود في ذاته أي لا ينقل ما هو كائن بالفعل، بل ينقل ما يجب أن يكون، وبذلك فالفنان من منطلق أرسطو يستدرك على الطبيعة ليكمل ما يعثرها من نقص، ومعنى هذا " أنها ليست وسيلة لنقل الطبيعة، وإنما وسيلة لدفع الطبيعة خطوات إلى الأمام في طريق البحث عن هدف، ومحاولة تكملة ما تركته الطبيعة من نقص"⁸، وهذا مخالف كما هو واضح لما ادعاه أفلاطون أنه سوى تقليد و وصف حرفي بسيط لا يصل إلى أسمى الحقائق.

- ينظر، في نظرية الأدب، ص:24،25.

- ينظر، فن الشعر، أرسطو، ص:62.

⁸ - البنى الأدبية وبنية الواقع والظاهرة الروائية، عبد الرحمن بوعلي، ص:96.

وإذا كان أفلاطون قد أطاح بالشاعر جاعلا منه مجرد مزور للحقيقة ضارا للمجتمع مشوها للحقائق، فإنّ أرسطو يرى بأنّ الشاعر ليس مزورا للحقيقة بل ساع إليها لكن بمنطقه الخاص، كما أنّه ليس في فنه شيء من الضرر للمجتمع، بل هو نافع، وإذا كان أفلاطون يرى أنّ الفن ملهم من ربة الفنّ وفاعلة فيه، فإنّ أرسطو يرى أنّ الفن غريزة في الإنسان منذ طفولته ويميزه عن الحيوانات الأخرى ... وأنه بهذه الغريزة يتلقى معارفه الأولى".⁹

ومن هنا، تستند المحاكاة الأرسطوية إلى المادية الواقعية، في حين، تتميز المحاكاة الأفلاطونية بالمثالية، وعلى هذا الأساس، لا يكون الفن وسيلة لنقل الطبيعة، وإنما هي وسيلة لدفع الطبيعة خطوات إلى الأمام في طريق البحث عن هدف، ومحاولة تكملة ما تركته الطبيعة ناقصا.¹⁰

الأسس الفكرية والفلسفية: 11

__ اعتماد الفلسفة المثالية الذاتية.

__ اعتبار الأدب غريزة مرتبطة بالطبيعة الإنسانية، وليس إلهاما كما ذكر أفلاطون.

__ ربط الأدب بالمتعة والمنفعة.

__ اعتبار الأدب ينمي عاطفة الشفقة والخوف فتجعل من الإنسان أكثر قوة.

__ اعتبار الأدب ينهض بالأخلاق وليس مفسدا لها.

مهمة الأدب ووظيفته: 12

تتخصر وظيفة الأدب في نظرية المحاكاة الأرسطوية في التطهير من خلال تنمية عاطفتي الخوف والشفقة، اللتين في رأيه تقدمان الخير والحقيقة و المنفعة للمجتمع، على عكس ما رأينا عند أفلاطون.

- وظيفة الناقد الأدبي، سامي منير عامر، دار المعارف، مصر، 1984م، ص: 12.⁹

¹⁰ - عبد الرحمن بوعلي: (البنى الأدبية وبنية الواقع والظاهرة الروائية)، ص: 96.

- ينظر، في نظرية الأدب، ص: 38، 40.¹¹

- ينظر، المصدر نفسه، ص: 43.¹²